كان عدد البيوت التي دمرتها قوى الاحتلال في ممارسة نوع من هذا التفريغ لا تقل عن ستة آلاف بيت . (٧) احتلال فلسطين ليس احتلالا سياسيا واقتصاديا فقط ، بل هو اولا وقبل كل شيء احتلال اسكاني ، ينطوي على ازالة معالم شعب ، احلال شعب آخر مكانه ، وعلى التوسع الجغرافي المستمر على حساب الامة العربية ووجودها ذاته . انه كيان اجتماعي سياسي قومي جديد ، وهذا يميز النضال الفلسطيني عن جميع الحروب الشعبية الاخرى . ثم ان هذا الاحتلال الاسكاني التوسعي لا يعبر عن مقاصد اسكانية فقط ، بل هو ايضا امتداد لتركيب ايديولوجي معين يعبر عن ذاته في « أوهام وتصورات » العدو التي تنعكس في عقيدته الصهيونية . هذا يعني فيما يعنيه ان المقاومة الفلسطينية ستجابه تصحيحا حازما أكثر بكثير مما واجهته الحروب الشعبية الاخرى في الصين وفيتنام والجزائر ، كما تعني انها لا تستطيع الاعتماد ، كهذه الاخيرة ، على اثارة رأي عام يناصرها داخل صفوف العدو يشل انطلاقه العسكري ضدها . حرب الجزائر مثلا انتصرت في فرنسا كما انتصرت في الجزائر . وكان انتصارها في فرنسا احد الشروط الاساسية التي أدت الى انتصارها في الجزائر . ما ينطبق على الجزائر ينطبق ايضا على ثورة فيتنام ضد الغزو الفرنسي اولا وضد الغزو الاميركي ثانيا. هذا العامل لا يتوفر للمقاومة الفلسطينية ، وهو ان افترضنا جدلا بأنه قد يتوفر لها في المستقبل البعيد، فانه لن يتوفر لها على الاقل في المستقبل القريب . (٨) الحروب الشعبية التي نجحت كانت ضد محتل اصيب بهزيمة عسكرية ساحقة في حرب عالمية . فاليابان كانت قد هزمت في الحرب العالمية الثانية ، وفرنسا كانت في وضع ضعيف من الانهيار الذي اصابها نتيجة هزيمة مماثلة بنجاح الصين وفيتنام والجزائر في حروب شعبية ضدهما . ونجاح حروب شعبية أخرى في يوغسلافيا والبلقان ضد المانيا النازية لم يكن اذن نتيجة مواجهة مستقلة مع عدو متماسك ، بل ضد عدو كان قد هزم عن طريق قوى اخرى . والولايات المتحدة التي لا ينطبق عليها هذا سوف تهزم ليس عسكريا بل سياسيا بسبب المقاومة الاميركية الداخلية لسياستها . وثورة كوبا ، ان صحت تسميتها كحرب شعبية ، نجحت ضد نظام كان قد دب اليه الانهيار من الداخل في جميع مستوياته . كما ان الولايات المتحدة نفسها كانت قد تراجعت عنه . هذه الاوضاع لا تتوفر للمقاومة الفلسطينية . وبذلك تتميز عن جميع الحروب الشعبية الاخرى .

من ناحية اخرى ، يجب ان نذكر بأنه الى جانب هذه الحروب الشعبية القليلة التي نجحت ، بسبب ما شرحناه من اوضاع ، هناك حروب « شعبية » ، او محاولات اخرى كثيرة في خلق هذه الحروب ، لم تنجح . ففي اميركا اللاتينية مثلا شاهدنا منذ بداية الستينات حروب عصابات عديدة كانت تأمل بالتحول الى حروب شعبية . ولكن على الرغم من نشاطها في بلدان عديدة هناك فانها عجزت عن توسيع عملياتها الى حرب شعبية في اي مكان . والان في بداية السبعينات نرى هناك على الاقل اعترافا ضمنيا بفشلها من قبل دعاة هذه الحروب . ولذلك نراهم يتحولون الى حرب العصابات في المدن . انني في عرض هذه الاوضاع وسلبياتها ، لا أريد طبعا تثبيط الهمم ، بل التنبيه الى انه يجب ان لا نحمل المقاومة أعباء لا تسمح بها اوضاعها ، أعباء عجزت عنها محاولات أخرى في الحروب الشعبية تعمل في أوضاع أكثر ملاءمة . ليس هناك من طريق أقصر الى تثبيط الهمم واضعافها من ربط اية حركة ثورية ، أي كفاح مسلح ، بمقاصد « تبشيرية » لا تنفتح لها الاوضاع الموضوعية التي يعمل فيها. المقاومة يجب أن لا تضعف ، او حتى ان تهتز ، وجميع جهودنا يجب ان تكرس في مساندتها ودعمها، ولكن يجب أن لا نطلب منها المستحيل ، يجب أن لا نلقي على كاهلها مهمة لا تستطيعها ، مهمة ترتبط بالعرب أجمعين ، بالامة العربية كلها . رحمة بالمقاومة يا ناس !.

الفكر المقاوم تجاهل تماما وكليا هذه الاوضاع الفريدة التي تميز المقاومة عن جميع الحروب الشعبية الاخرى ، والتي تلغي في الواقع امكان تحولها الى حرب من هذا النوع . ان المرء يعجب في الواقع كيف يمكن لفكر ثوري مسؤول ان يتعامى بهذا الشكل عن اوضاع موضوعية بارزة كهذه الاوضاع ، فيتابع طريقه وكأنها غير موجودة . السبب الاول يعود طبعا الى طبيعته التبشيرية ، التي تعود ، في دورها ، الى اسباب عديدة لا يتسع المجال لذكرها وتعدادها . ولكن بالاضافة الى هذا السبب ، نود التنبيه الى سبب آخر عام يميز الفكر الانساني ذاته ، كما نعرفه حتى الان على الاقل ، في مختلف المجتمعات والاوضاع . الناس ، وان تحرروا من الاطارات العقلية والنفسية الغيبية التي تشتق من فلسفة حياة دينية